مكتبة البنين
قسم الدوريات

حولية كلية الآداب والعلوم الاجتماعية

غير مصرح باستعارتها من المكتبة

العـــدد العـــاشـــر

١٤٠٧ هـ - ١٩٨٧ م ميلادية

في التعريب التربوي وتيسير العربية

الدكتور ابراهيم السامرائي
الأستاذ بكلية الآداب - الجامعة الاردنية

يبدو أن المراد بتعريب (الوسائل) جعل الوسائل التعليمية عربية لا شيء فيها من مصطلح أعجمي ، وهذا يعني (التعريب) لهذه اللغة الخاصة .

أقول لابد لنا ان نعرض لشيء يتصل بـ (تاريخ) هذه العملية الثقافية في هذه العربية التي ورثناها اليوم لغة جديدة (عربية معاصرة) واذا كنا ممتحنين اليوم من أمر هذه العربية ذات الاصول القديمة الموروثة في الاخذ بها الى ان تكون معاصرة تحفل بالجديد فتكون الاداة الصالحة للاعراب عن الحضارة المعاصرة .

ان الحضارة المعاصرة تتسم بسمات كثيرة من (العالمية) وان العرب مضطرون ـ رضوا أم أبوا ـ ان يأخذوا بكثير من ألوان هذه الحضارة مع الاحتفاظ بما لهم من إرث حضاري قديم ، فكيف السبيل الى ذلك .

لابد ان يكون لنا نحن العرب من الوسائل التي تكفل تحقيق هذه المهمة . تلكم الاداة الكفيلة هي التعريب ، وليس جديدا ان نهتدي الى هذا فقد جدّ الغيارى من اهل الجد في

مطلع هذا القرن فى سلوك هذا النهج القويم ، غير ان تلك المساعى غير كافية ، ولم يكن لهؤلاء الغيارى من خطة واضحة ، ولم يكونوا على اتصال وثيق بينهم ، كان نفر من هؤلاء يعمل فى جهة من الجهات فى حين ان نفراً آخر يعمل فى جهة اخرى ، وليس من صلة بين أولئك وهؤلاء، ومن اجل ذلك لم تؤد جهود هذه العناصر الى نتائج وافية بالغرض المطلوب .

ولقد آل الامر الى ان تكون جملة اقطار عربية قد سلكت الدرب سلوكا مترددا متلكئا فى تطبيق هذا الغرض ، فى حين بقيت اقطار اخرى بعيدة عما يشغل القوم فى الطائفة الاولى لاسباب سياسية وغير سياسية ، واذا كان نفر كبير من اهل العلم قد ادركوا قيمة هذه المشكلة الثقافية وقدروا خطرها ، فليس من شك ان نفرا آخر غير قليل مازال بعيدا عن ادراك هذه المشكلة وهو راض بل مقتنع ان اللغة الاعجمية انكليزية أو فرنسية هى الاداة الصالحة فى هذه العملية الثقافية الكبيرة وان الخطر كل الخطر ان يصار الى العربية ، ولقد سمعت شيئا من هذا فى كل مكان ، فى اقطار المشرق واقطار المغرب ، ولقد أوحى هؤلاء الى المتعلمين ، أو قل الى أولياء أمورهم ان يروا بل ان يعتقدوا ان (العلم الجديد) لا يمكن ان يعلَّم بالعربية .

وانى لاذكر انى رأيت احدا من هؤلاء فى الكويت ، وهو رجل متعلم ، فقد اخبرنى انه ذاهب الى العراق ليصحب ابنته ويعود بها ، فقد قبلت فى الكلية الطبية ، وقد بلغه ان التدريس فيها بالعربية بحسب قرار الحكومة العراقية ، فقلت له ، ولم تفعل ذلك ؟ فأجاب انه يرى ان لا سبيل الى ان تعطى العلوم الطبية بالعربية ، فلابد من لغة انكليزية ، ومن اجل ذلك عهد الى التوجه بابنته الى احدى الجامعات الاجنبية فى الوطن العربى كبيروت مثلا .

كان هذا الرجل متعلما بل مشرفا تربويا فى وزارة التربية فى الكويت ، فما بالك بغير المتعلمين من سواد الشعب ، فقد لا تستغرب ان تستمع فى مدينة الجزائر لاسكاف تسأله عن ابنه ماذا يدرس فى الجامعة فيجيبك مبتئسا متأسفا انه يدرس موضوع الـ cartographe في الجامعة وللاسف ـ هذا ما قاله ـ ان ولدى فى القسم المعرب ، فقلت له : ولم هذا الاسف ، ألم تكن انت ممن ناضل الاستعمار وأخذ عليه انه ابعد الجزائريين عن لغتهم الأم ؟ فقال : نعم غير ان

الطالب لا يتعلم بالعربية الشيء الضرورى الكثير ، وانه يقصر ان كان تعلمه مقارنة مع زميله الذى درس العلم فى القسم الفرنسى .

مثل هذا تلقاه فى كل مكان فى وطننا الكبير ، والخطر كل الخطر ان يكون من اهل الاختصاص فى العلوم الجديدة طائفة من هؤلاء .

ان التعريب لدى هذه الطائفة من اهل العلم عمل عسير من قبل ان هؤلاء لا يعرفون العربية[1] ، فكيف يتهيأ لهم ان يعلموا هذه العلوم الجديدة بعربية سليمة معاصرة ؟

أقول : ان «تعريب وسائل العلم» ليس عسيرا لو تهيأت العناصر المؤمنة بهذه المهمة بادىء ذى بدء ، ثم لو كانت هذه العناصر تعرف العربية وتلتزم بأصولها التزامها باللغة الاعجمية ، الا نرى ان أيا من أصحاب الاختصاص ، حملة الدرجات العلمية العالية ، لو كتب بحثا له فى الانكليزية للمشاركة بمؤتمر علمى أو حلقة دراسية لما أخذ عليه تجاوزا فى الانكليزية يمسّ الفروع بله الاصول . وانه يجتهد ان تكون لغة بحثه فى الانكليزية مما يرتضيه زميله الانكليزى أو غيره من اهل العلم فى عصرنا هذا ، هذا يعنى انه ادرك ادراكا صحيحا ان البحث العلمى فى العلوم الحديثة لابد له من اداة صالحة يتم فيها الحفاظ على الاصول ، فأين هذا من حال هؤلاء ان طلب اليهم ان يكتبوا بالعربية ؟

لقد أدرك الاقدمون هذه المشكلة فتوجهوا اليها مزودين بما تقتضيه من وسائل العلم فكان التعريب عندهم على النحو الآتى :

(التعريب) من بين معانيه المختلفة ، مصطلح يعنى تعريب الكلم الاعجمى فتنطلق به العرب على منهاجها ، قالوا : عَرَّبَتْه العرب، وأعربته ايضا ، ولقد جروا فى فهمهم لهذا المصطلح على نحو واضح ومنهج سدد .

قال الجواليقى في (المُعَرَّب) :

(اعلم أنهم كثيرا ما يجترئون على تغيير الاسماء الاعجمية اذا استعملوها ، فيبدلون الحروف التى ليست من حروفهم الى أقربها مخرجا ، وربما ابدلوا ما بعد مخرجه أيضا) .

والابدال لازم لئلا يدخلوا فى كلامهم ما ليس من حروفهم ، وربّما غيّروا البناء من الكلام الفارسى الى أبنية العرب[٢] . وهذا التغيير يكون بابدال حرف من حَرْف ، أوزيادة حرف ، أو نقصان حرف ، أو ابدال حركة بحركة . أو اسكان متحرّك ، أو تحريك ساكن . وربّما تركوا الحرف على حاله لم يغيّروه ، فما غيّروه من الحروف ما كان بين الجيم والكاف ، وربما جَعَلوهُ جيماً ، وربما جَعَلوهُ كافاً ، وربّما جعلوه قافا ، لقرب القاف من الكاف ، قالوا : (كُرْبُج) وبعضهم يقول (قُرْبُق) .

قال أبو عمرو : سَمِعتُ الأصمعى يقول : هو موضع يقال له : (كُرْبَك) ، قال يريدون : (كُرْبَج) وأبدلوا الحَرْف الذى بين الباء[٣] والفاء فاءً ، وربّما أبدَلوهُ باءً قالوا : (فالوذ) و (فِرند) . وأبدلوا السين من الشين فقالوا للصحراء : (دست) وهى بالفارسية (دشت)[٤] .

وهكذا صَنَعُوا فى حروف أخرى فأبدلوا اللام من الزاى فى (قفشليل) وهى المَغرفة وأصلها (كفجلاز) وقد غيّروا فى الكلم الأعجمى ليأتى مناسبا للكلم فى العربية ، ثم انهوا ألحقوا الابنية الاعجمية بأبنيتهم العربية ومما ألحقوه مثلا (درهم) ألحقوه بـ (هِجْرَع) و (بَهْرَج) ألحقوه بـ (سَلْهَب) و (دينار) ألحقوه بـ (دِيماس) و (اسحاق) بـ (اِبهام) و (يعقوب) ألحقوه بـ (يَرْبُوع) و (جَوْرب) بـ (كَوْكَب) و (شُبارقَ) بـ (عُذافِر) و (رُزداق) بـ (قُرطاس) .

وربّما زادوا فى الكلم أو نقصوا منه ليجىء مناسبا لابنية العرب ، ومما تركوه على حاله فلم يغيروه (خُراسان) و (خُرَّم) و (كُرْكُم) .

هوِّن عليك أخى القارىء ، فقد أكون قد أطلت عليك فى هذا العَرْض الجافى القديم ، غير أنى قصدت الى شىء ذى فائدة يتصل بجهد المعرِّب فى عصرنا هذا ، أريد أن أقول : كان المعرِّب القديم مدركاً قضية التعريب ادراكاً واسعاً فهو قد وجد نفسه بازاء أدوات جديدة أعجمية فماذا يصنع ؟ لقد وجد ان العربية ذات أبنية كثيرة ، وأنه لابد واجد فى هذا الحشد من

الأبنية ما يوافق الابنية الاعجمية فضم هذا الجديد الوافد الى أبنيته العربية ان وجده على وزان تلك الابنية ، فان لم يجده كذلك عمد الى شيء من التغيير قليل أو كثير ليأتى الجديد الوافد موافقا فيضم الى العربية ، هذا من ناحية الصيغ ، ثم نظر الى الاصوات فاتبع الطريقة نفسها اما وجد الكلم الاعجمى موافقا ، فان لم يكن كذلك غير الصوت الى ما يشبهه او يقرب منه وهكذا دَرَجوا فى تعريب الكلم الاعجمى فكان لهم من ذلك قدر كبير من (المعرّب) مما اقتضته حاجة عَرضَتْ لهم فى الحياة اليومية ، وما تدعو اليه من أدوات وآلات وأطعمة وأشربة ، وما يدخل فى باب الصنعة والحرف من ذلك ، ثم كانت حضارة العرب فى العصور الاسلامية وما اكتسبته فى منطلقاتها وتقبلها للروافد الحضارية الاخرى ، وحسبك ان تعلم ان العربية كانت طوال قرون عدة لغة العلم والحضارة فى العالم المتحضر القديم ، لقد عَرَفهَا وكتب بها العرب مسلمون وغير مسلمين ، وعرفها وكتب بها غير العرب من المسلمين وغيرهم ، بل قل ان طائفة كبيرة من هؤلاء العلماء قد ثقفوها ووقفوا على أسرارها فأحبّوها وهجروا لغاتهم فجعلوها لغتهم المفضلة وبها عُرفوا لأنهم كتبوا بها ولم يخطّوا حرفا بغيرها .

لقد درج العلماء طوال العصور المتصلة على هذا السنن فى (التعريب) فماذا كان لهم من نتائج ؟ أقول : على الرغم مما وضع الاقدمون من منهج فى تعريب الكلم الاعجمى مراعين الابنية والاصوات العربية الا أنهم لم يسلموا من أوهام كثيرة منها :

١ ـ انهم لم يدركوا ادراكاً كافيا الكلمة السامية المشتركة ، وان بين العربية وجملة لغات عدة هى اللغات السامية باصطلاح الباحثين من القرن الثامن عشر الى يومنا هذا ، علاقات قرابة ترجع الى أصل قديم مشترك هو السامية الام التى لا نعرف عن أوليتها شيئا ، ولكننا نصطلح ان كل مشترك بين هذه اللغات وقالوا بعجمة كل لفظ من هذه اللغات وانه دخيل فى العربية وقد عرب فيها .

ألا ترى انهم وهموا فعدوا (كنيسة) مثلا من (المعرب) وفاتهم ان مادة (كنس) معروفة فى العربية ومنها (كناس) الظبى وهى مادة سامية تعنى السكن والاستقرار .

وقالوا (جُدَّة) النهر أى شاطئه من المعربات ، و (الجدة) أى الطريق ، لا أشك فى عروبتها ، ثم انها من المشترك السامى .

ولقد عرض هذا لهم فساءت نتائجهم ، وان كانوا قد وضعوا له منهجا مبنيا على العلم فى قواعد التعريب .

ومن الغريب ان نقراً من أهل هذا العصر وجلهم من أصحابنا النصارى من أهل الدرجات العلمية الدينية قد سلكوا مسلكاً غريبا مناقضا للعلم فى ادعاء (سريانية) قدر كبير من الكلم العربى ، وهذا الخطأ لا يغتفر لهم ، فقد اتضح العلم فى عصرنا فى علم اللغات السامية المقارن ، ووضع العلماء معجمات فى الموضوع هى موطن الثقة ومقطع الرأى ومعدن العلم ، واذا التمسنا العذر للعلماء الاقدمين فى جهلهم بهذه اللغات ووقوعهم فى الخطأ فلا نلتمسه لهذه الطائفة من اهل العلم فى عصرنا هذا .

لقد ابتعد هؤلاء عن العلم الصحيح حين ادعوا سريانية مواد كثيرة مثل : قرأ وشعر وسبح وصلى وزكى وغير هذا كثير ، وليس من شك فى ان هذه المواد عربية وان كان لها اصل سامى قديم ، لقد فات هؤلاء ان المواد التى شاعت فى الآرامية السريانية وعرفت بها نحو : الكنيسة والابيل والقس والقدس وطائفة أخرى من الواد السريانية هى سامية أيضا وان اختصت بها الآرامية السريانية . ولهذا النفر من الباحثين مصنفات أوردوا فيها ما ذهبوا اليه من سريانية كلم كثير عرفته العربية منذ أقدم عصورها .

٢ ـ ومما يوجه الى القدامى من نقد فى باب (المعرب) أنهم خلطوا بين الاصول فلم يميزوا بين ما هو سامى ، وبين ما هو أصل فارسى ، وهذا يعنى انهم لم يعرفوا هذه اللغات معرفة العالم الذى يستطيع ان يفصل بين الاصول فيدرك الحقيقة فيقطع بالعلم الصحيح ، ومن اجل ذلك كان الدارس لا يخرج برأى مفيد وهو يرجع الى تلك المصادر القديمة مثل (المعرب) للجواليقى و (شفاء الغليل) للخفاجى ، على ان المحدثين الذين أشرنا اليهم ممن ادعوا سريانية كثير من الكلم العربى هم على غرار أولئك القدامى فى ابتعادهم عن العلم الصحيح ،

ومن هؤلاء القس يوسف حبيقة البسكنتاوى فى كتابه (الدوائر السريانية فى ـ لبنان وسورية)[٥] ، والبطريرك مار أغناطيوس افرام الاول برصوم فى كتابه (الالفاظ السريانية فى المعاجم العربية)[٦] وغيرهما .

على اننا الآن على علم أكيد بالكلم الدخيل وذلك للجهود المضنية التى بذلها علماء الساميات فى معرفة الاصول ، وبهذا يتضح لنا ان (المعرب) ما كان من لغة غير عربية وغير سامية ومن هذا مثلا ما استعاره العرب من الفارسية أو أخذوه من الاغريقية مثلا ، وأرجع فأقول : ادرك العرب ، مادة (التعريب) هلى هذا الوجه فقالوا مثلا ان كلمة (الفردوس) التى استعملت فى لغة التنزيل من (المعرب) اى انها من أصل غير عربى ، وهو اغريقى ، أخذها العرب فبنوها على هذا البناء فصارت عربية ، ومثل هذا فلسفة وموسيقى وجغرافيا وغيرها كثير .

أقول : لو أننا فهمنا (التعريب) على نحو ما فهم الاوائل من علمائنا العظام فعربنا الاعجمى بشىء من العلاج فى الاصوات والابنية العربية لكان لنا مادة مهمة نضيفها الى المواد الاخرى العربية التى نقابل بها المصطلح الاجنبى ، أقول : لو كان لنا ذلك لتوفر لنا قدر كبير من المادة اللغوية على هيئة مصطلحات فنية علمية يكون مادة لما يسمى (التعريب) فى عصرنا هذا .

وانني لأدعو الى ان نأخذ بهذا السبيل ذى الشقين : الاول تعريب المصطلح الاجنبى على طريقة المتقدمين التى أشرنا اليها ، والثانى الافادة من المواد العربية الخالصة نصنع منها المصطلح الجديد .

اننا نواجه فى عصرنا هذا مشكلة تدريس العلوم الحديثة بالعربية ، وما أظن ان المشكلة على قدر كبير من الصعوبة لو أحسنا الوصول اليها ، لسنا بدعا بين الامم اذا أردنا ان نسلك هذا الطريق ، ذلك ان الامم المتقدمة منها وغير المتقدمة سلكت هذا السبيل فالفرنسى يدرس العلوم بالفرنسية والالمانى بالالمانية ، والروسى بالروسية واليوغسلافى بلغته الخاصة ، واليابانى باليابانية ، والتركى بالتركية والايرانى بالفارسية ، الا ترى ان الحق يفرض علينا ان نعلم ان

عربيتنا اكثر تقبلا للعلم الحديث من كثير من اللغات ولا سيما الشرقية منها .

وقد نكون قد فرطنا قليلا فى التماس المصطلحات فى العربية لنظائرها فى اللغات العربية واجتهدنا بكل الوسائل ان نجد لها من الكلم العربى مادة جديدة ، واذا كان أوائلنا قد اشتقوا من المهرجان والنوروز فعلين هما ، مهرج ونورز فلم نتلكا فى حاضرنا فلا نقبل بالتعريب على طريقة السلف فنوفر قدرا من المصطلح (العالمى) ؟

أقول : (العالمى) لان كثيرا من مصطلحات العلوم اصبحت عالمية فليس « Atomic» مثلا مصطلحا انكليزيا ذلك ان الالمانى والفرنسى والروسى والبلغارى واليابانى والتركى والايرانى يستعمله ويتخذه مصطلحا فى لغته الخاصة .

ولا أريد ان أسرف فى سلوك هذا السبيل ، ولكنى أقول : ان توفير المصطلحات بهذه الطريقة، وبالبحث فى العربية عن الكلم الفصيح ، مما استعمله القدماء ، أو مما لم يستعملوه ، أو مما نراه مقابلا للمصطلح الاجنبى ، كل هذا يوفر لنا ما نحن نفتقر اليه أشد الافتقار .

واذا كنا نواجه مشكلة التعريب ابتغاء ان تكون لغتنا المعاصرة لغة العلم الحديث فى هذا العالم الذى يقذف كل يوم بالجديد ، فان ذلك آت من أن لغتنا مرت بهذه التجربة فكان له مصطلح قديم ، وأول هذا المصطلح هو المصطلح الاسلامى ، ان اللغة الاسلامية هى العربية الاسلامية التى جاء بها الاسلام فى (كتابه) و (سنته) ، ثم اتسع نطاقها فى العلوم الاسلامية وعلى رأسها علوم القرآن والحديث .

ثم كانت تجربة اخرى مرت بها العربية ، حين واجه العرب بعد ان انتقلوا من بلادهم الى بلاد غيرها ، فاتصلوا بأمم شتى ، وكان من أثر ذلك ان أخذ العرب من علوم هذه الامم ومعارفها فاضطروا الى ايجاد لون جديد هو المصطلح العلمى الذى حفلت به العربية فى العصور العباسية .

وعلى هذا تأتى التجربة الحديثة فى عصرنا هذا فتبرز مشكلات عدة أولاها اننا فى حالة جديدة

تتسم فى ان العرب عامة يعانون من الازدواج اللغوى وان لكل طائفة منهم لسان دارج عامى بل ألسن عامية دارجة ، وانهم يتعلمون الفصيح تعلما ، وهذا التعلم قد بدأ عملية منظمة فى مدارس ومعاهد بعد زوال الامبراطورية ونشوء ما يدعى بالحكم الوطنى فى هذه الاجزاء العربية التى انسلخت من الامبراطورية العثمانية ، لقد بدأ فى هذه الحقبة التعليم النظامى للعربية فى مدارس خاصة هى ابتدائية ثم اعدادية وثانوية ثم كليات ومعاهد عالية فكيف كان ذاك ؟

من المفيد ان نشير الى ان تعليم العربية فى هذه المدارس والمعاهد قد سبقه مرحلة اخرى كان فيها هذا التعليم نمطا آخر فى المعاهد الدينية والحلقات التى تعقد فى المساجد التى كانت تتخذ معاهد لتعليم العربية والعلوم الدينية وطائفة قليلة اخرى من العلوم الدنيوية .

ان تعليم العربية فى هذه المعاهد الدينية وحلقات المساجد له نظامه الخاص فالطالب يستمع من شيخه مادة النحو والصرف والعروض والبلاغة وشيئا من الادب فى كتب خاصة وحواش وتعليقات .

والطالب فى هذه المعاهد يقرأ فى الكتاب والشيخ الاستاذ يشرح ويفسر ويضيف ، أو يملى على الطالب والطالب يكتب ما يملى عليه ، فان كان مع الطالب جماعة من الطلاب فهم يستمعون ويكتبون ما يملى عليهم . وقد يستفهمون ويسألون وهكذا ينتهى الدرس وقد حصل الطالب ان كان وحده او الطلاب ان كانوا دفعة مجتمعة مادتهم الدراسية فى أى من علوم العربية .

وقد كان الكتاب الدراسى التعليمى فى هذه الحقبة المتأخرة التى سبقت التعليم النظامى فى المدارس الرسمية كتابا فى النحو من كتب ابن هشام او حاشية او تعليقا لشيخ من أولئك الشيوخ المتأخرين وقد يكون الشيخ ازهريا مصريا أو شيخا شاميا أو عراقيا أو احدا من شيوخ المغرب العربى فى القرويين أو الزيتونة مثلا ، وفى هذه الكتب كتب للنحو وأخرى للصرف وحاشية فى العروض وأخرى فى البلاغة ، واذا أتم الطالب هذا القدر من هذه المادة اللغوية انتقل الى علوم القرآن والحديث ثم يغادر مجموع ذلك الى علوم الدين كالفقه والاصول والعقائد والاحكام وقد

يشدو شيئا من علم الكلام .

ان المنهج العلمى فى هذه الكتب المتأخرة وفى الحواشى والتعليقات يتسم بطابع خاص يقوم على اختلاط العلم اللغوى بشوائب لا تمت الى العلم اللغوى بصلة كما سنتبين ذلك ، ان الطالب فى درس النحو والصرف يبدأ بكتاب صغير قد يكون (الاجرومية) فى الاقطار المغربية ، وقد يكون حاشية صغيرة لاحد الشيوخ فى مصر او الشام أو العراق ، ثم يعرف الطالب كتاب (قطر الندى) لابن هشام أو (شذور الذهب) لابن هشام أيضا ، ثم ينتقل الطالب لالفية ابن مالك فى أحد شروحها كشرح ابن هشام المسمى (أوضح المسالك) أو شرح ابن الناظر بدر الدين ، أو شرح أبى حيان المسمى (المنهج السالك) أو شرح السيوطى مثلا .

ومن المعلوم ان الطريقة فى جملة هذه الكتب طريقة تقريرية تملى على الطالب المادة بحدودها وتقسيماتها وتفريعاتها مع تحليلات وتفسيرات ليست من اللغة . ولعل اللون المنطقى هو المتحكم فى هذه التحليلات والتفسيرات ، وقد يتحول الموضوع النحوى او الصرفى الى مادة منطقية بعيدة عن المادة اللغوية ، وهذا النحو فى هذه الكتب المتأخرة قد جمع الى المادة اللغوية مواد اخرى ليست لغوية تؤلف الاطار العام للتأليف اللغوى .

ان العلم اللغوى فى هذه الحقبة التى أشرنا اليها تلك التى سبقت التعليم الجديد فى المدارس الحديثة ارث لمادة لغوية درج فيها اللاحق على خطى السابق ، وكان هذا النحو قد سلخ من عمره اثنى عشر قرنا ، لقد كان السلف الاوائل قد وضعوا البداية النحوية ليكون مادة تدفع غائلة اللحن الذى تفشى فى لغة المعربين من العرب بسبب مخالطتهم للاعاجم المتعربين الذين انضموا الى المجتمع الاسلامى ، ومن غير شك ان نحوا وضع ليفى بهذا الغرض لابد ان تكون مادة تعلمه موضوعية كما نقول فى عصرنا هذا[٧] .

غير أنه ما لبث ان صار أحد فروع المعرفة ابتداء من أوائل القرن الثالث الهجرى ، وهذا يعنى أنه صار مادة للدرس والاجتهاد ، وصار له أصحابه ممن عرفوا بالنحاة ، ثم كان ان صار

أولئك طبقات على مر العصور ، ثم تحول من مواد يسيرة يراد بها غرضا تعليميا وهو عصمة اللسان من غائلة اللحن[٨] الى مواد جديدة لا يراد منها ان تكون ضوابط يسيرة لغرض معروف ، ولقد أدى هذا الى ان صار النحو مادة معقدة عسيرة ، عن تناول المشكلة اللغوية ذلك انها اقتبست من المنطق الارسطى وأساليبه ما أحال المادة اللغوية الى شيء آخر ، لقد تحول النحو الى مادة جدلية تستند على العلة والمعلول ، ومن هنا كان النحو (علم الاعراب) ، والى هذا أشار الزمخشرى فى مقدمة كتابه (المفصل) الى أن علم النحو هو الاعراب ، وأدى هذا الى ان صار طالب النحو يبحث فى حركة آخر الكلمة ، ولم يكتف النحاة بهذا بل بحثوا فى علة الاعراب ، ومن هنا قرروا ان الاسم معرب لانه كيت وكيت وان كل ما اشبهه كان معربا ، ومن اجل هذا شابه الفعل المستقبل الاسم فكان مضارعا له .

رب سائل يسأل : وما ضير هذه النظرة على الحقيقة اللغوية ؟ والجواب عن هذا ان شيئا كثيرا يتصل بمادة الفعل قد أهمل ، ألا ترى انهم جعلوا حد الفعل : الحدث المقترن بزمن ! .

غير اننا لا نعرف وجه (الزمن) فى باب الفعل فى أى من كتب النحو القديم ، ثم لم يكتفوا بالعلة الاولى حتى اخترعوا الثوانى والثوالث من العلل ، ثم كأنهم لمحوا ان الكلمة العربية (معربة) اصالة ولذلك اهتموا بالاعراب فنظروا اليه على انه (اثر يجلبه العامل) ولابد من الوقوف عند هذه النظرة لنتبين أثر المنطق فيها .

أقول : كأن الاعراب النتيجة التى أدى اليها (العامل) وهو السبب ، فاذا لم يروا هذا الاثر قدّروه فكان الاعراب التقديرى ، وهو شيء متخيل متوهم مبنى على افتراض وجود (العامل المؤثر) فان كانت الكلمة مما لا يقبل الحركة التى يجلبها العامل ، أى من الكلمات الساكنة الآخر ، أو تلك التى لها حركتها الدائمة ، سميت مبنية ، وهى لابد ان تخضع لنظام جمهرة الكلمات فى العربية التى تقبل الحركة فى آخرها المسماة (معربة) ومن هنا كان الاعراب (المحلى) وهذا يعنى ان الكلمة فى العربية لا تفلت من حكم الاعراب .

أقول : ان المتتبع لمواد النحو فى كتبه القديمة . واقصد بالكتب القديمة تلك التى درستها

اجيالنا السابقة فى باب (علوم الجادة) وهى التى تدخل فى آلات المتعلمين حتى جيلنا السابق ، ان المتتبع لهذه الكتب يجد مواد وطرائق بعيدة كل البعد ، عن النهج السليم فى تحرير النحو فى عصرنا ولا سيما فى اللغات المتقدمة الغربية ، ولا أرى حاجة لضرب الامثلة على ذلك .

ان هذه الكتب القديمة ، وجلها شروح للالفية وشروح وتعليق على شواهدها لتختلف عن نظرات النحويين المتقدمين من طبقات النحاة الاوائل ، فاين هذه من آراء الخليل بن احمد وسيبويه وأضرابهما من النحاة المتقدمين .

ومما حمل الضيم على الدراسات النحوية فى عصرنا انها اتخذت الفية الامام ابن مالك وشروحها الكتب الجامعية التى يدرسها الطلاب فضاقوا بها ذرعا ، والشكوى مريرة ، والطالب يقرأ والمدرس يشرح كزميله الشيخ ، ومن نتائج هذه الدراسة ان الكتب المدرسية فى المدارس الثانوية والاعدادية وحتى الابتدائية اتبعت شيئا مما جاء فى تلك الكتب التى يقرؤها الدارسون فى الدراسات العليا .

ولا يحسبن القارىء انى أدعو الى ان يعزف الدارس عن هذه الكتب القديمة فى الدرس النحوى على اننى تكلمت عن مجانبة اولئك النحاة الذين خلفوا المتقدمين فى هذا الفن ، عن السنن اللغوى الصحيح ، أريد ان أقول : ان دارس النحو فى عصرنا ينبغى له ان يدرس النحو العربى درسا تاريخيا فلابد ان يعرف النحو القديم وكيف بدأ وما أنجزه الاوائل فيه كالخليل بن احمد وسيبويه والمبرد وابن السراج والمازنى والكسائى والفراء ، وهو ملزم ان يعرف مذاهب اولئك بصريين وكوفيين وأثر كل منهم فى المسيرة اللغوية ، ولابد للدارس ان يعرف ويلم بما أثر فى النحو فى بدايته بما ليس من علم اللغة ، وكيف استحب النحويون ان يفيدوا من المنطق وما يتصل بأسباب من علم الكلام وغيره ، ثم ان الدارس ملزم ايضا ان يعرف طبقات النحويين طوال العصور وكيف تهيأ للنحو ان يتسع فى شروحه وتعليلاته حتى وصل الى ما وصل اليه فى شروح الالفية والحواشى والتعليقات الكثيرة التى حولت الشىء الكثير من المادة النحوية

اللغوية الى علم آخر قد يبتعد فى بعض الاحايين مما كونه علما لغويا .

أقول : اذا كان هذا من مهمة الدارس النحوى ومما يشغله فى عصرنا هذا ولا سيما فى الدراسات الجامعية العليا ، فهو فى الوقت نفسه ملزم ان يعرف النحو العربى بما يجب ان يكون عليه ليكون علما لغويا جديدا يتصل بالمعنى اللغوى فى عصرنا هذا .

ولا يحسبن القارىء ايضا انى أدعوا الى أن يأخذ الدارس النحوى الجديد بكل نظر جديد وافد من الغرب ، ولكنى أدعو الى ان يكون دارس النحو الجديد رجلا واعيا يؤمن بـ (الموضوعية) فيدرس النحو العربى فى مادته العربية . وما تمليه عليه حقيقة العربية ومسيرتها التاريخية ، على ان لا يكون هذا الدارس واقفا بادىء ذى بدء موقفا معاديا للجديد الوافد من الغرب مثلا على شدة موضوعيته .

هذا يعنى ان الدارس الجديد مثلا يعرف ان للغربيين مدارس لغوية ومذاهب وآراء ، ومن العلم أن يكون هذا الدارس على صلة جيدة بهذا الجديد ، وان صلته هذه تدفعه الى ان يلم بالنافع المفيد الذى يخدم عملية التعلم التربوية لهذه اللغة .

ولا أريد ان يكون هذا الدارس الجديد للنحو مبهورا مأخوذا بالتجديد يريد ان يحمله على العربية دون ان يتبصر فيه فينظر ماذا يجب ان يؤخذ وماذا يجب ألا يؤخذ ، فاذا كان له هذا النظر فقد يكون قد أفاد من العلم اللغوى الحديث ، فان لم يكن له ما نريد من هذا النظر فقد يكون قد حمل الضيم على العربية المعاصرة[٩] .

على ان من العلم ان يكون لنا نحو جديد قائم على فهم جديد للعربية ، وهذا الفهم الجديد يتخذ من العربية التاريخية أساسا يقوم عليه البناء الجديد ، ان هذا الاساس هو المادة اللغوية بعيدة عما ران عليها من شوائب بعيدة كل البعد عن طبيعة اللغة .

لقد أدرك جماعة من الدارسين العرب ان العربية فى عصرنا لم تملك من وسائل الدرس الحديث شيئا فهى قديمة فى مادتها وان ألبست لبوسا جديدا هو مظهر خارجى لا يتجاوز الظواهر الثانوية . غير أن هؤلاء لم يأتوا بجديد مفيد ، وذلك لانهم لم يستطيعوا الافادة من الجديد ومما

يجب ان يدرس ، لقد شغلوا انفسهم بالكلام على النظريات الحديثة التى كتب فيها الاوربيون فرنسيون وانكليز وغيرهم من علماء السويد وما يسمى بمدرسة براغ ، وما أضافه العلماء الاسكندنافيون وغيرهم . ثم ما قام فى العالم الامريكى الجديد من دراسات كثيرة اعتمدت فى الغالب على انجازات الاوربيين ، ان العلم بكل هذا مفيد على ان يكون هذا الباحث العربى مدركا ادراكا كافيا للطريقة التى بها يستفاد من هذا الجديد الوافد .

وقفة على دروس العربية :

لابد ان ندرس العربية ونعلمها الى التلاميذ الصغار ثم الى الطلاب بطريقة جديدة نافعة ، واذا كنا نحترم التراث القديم فمن حق التراث علينا ان نصونه ونحفظه بطريقة عقلانية ، وان يكون بيننا وبين التراث صلة رحم قوية تتجاوز الحماسة الجوفاء الى شيء آخر نصل به التراث القديم بمسيرة حياتنا ، ان صون التراث يفرض علينا ان نطرح عنه الغث الباطل فنجرد الاصيل الكريم ، ومن هنا يكون علينا ان ندرسه بما يقتضى العلم ، واذا كانت العربية رأس هذا التراث فمن واجبنا ان نتوجه اليها بكل نافع من أساليب الدرس .

ومن العجب اننا نأخذ انفسنا بكل جديد فى العلم فندرس العلوم التطبيقية كما قررها اهل العلم الكبار وأهل النظر ونطرح النظريات القديمة التى تجاوزها العلم الجديد ، نؤمن بهذا ونباشره فى الطب والفلك والقضاء والفيزياء والكيمياء والعلوم الانسانية كالفلسفة والاجتماع والجغرافية والتاريخ ، ولكننا لا نؤمن بهذا اذا اردنا ان ندرس مادة لغتنا فى ألوانها المختلفة .

ان النحو والصرف والعروض والبلاغة وما يتصل بالعربية اداء ورسما من العلوم اللسانية التى سبيلها اقرار ما ورد فيها من أساليب فى القول والنطق والكتابة دون ان نفلسف هذا الذى درج عليه الناس بداهة . ولو ان علماء العربية جروا على مقولة سيبويه حين سئل عن سبب بناء (أىّ) اذا اضيفت وحذف صدر صلتها على الضم ، فأجاب : أىّ كذا خلقت ، وذلك فى قولهم : اذا مررت بهم فسلّم عليهم على أيُّهم أفضَلُ .

ان التعليم يبدأ أول ما يبدأ بقراءة وتلاوة وتعلم الاصوات ، ومن اجل ذلك ينبغى ان ندرس اول مادة نواجه بها الطفل نسميها (القراءة) فى مدرسنا الاولى ، والكتاب هو كتاب القراءة ، وهذه المرحلة تفرض علينا ان نعلِّم الطفل اخراج الاصوات مخرجا حسناً فنجتهد كل الاجتهاد فى ازالة ما علق فى لسانه من أصوات عامية لا تتفق والاصوات الفصيحة ذلك ان لكل صوت فى العربية الفصيحة نطق خاص وان كان هذا الصوت يتأثر فى اخراجه بالطريقة التى جرى عليها الناس فى ألسنتهم الدارجة ، ومن الطبيعى ان يكون للقروى اصوات تختلف عن اصوات ابن المدينة ، ومن عدم العناية بالاصوات صار كل قطر ينطق الضاد أو الظاء على طريقته وآل الامر الى ان يضيع صوت الضاد[١٠] ، ومثل هذا صوت الجيم قد تغير بين قطر وآخر فالجيم اللبنانية غير الجيم فى الخليج ، ومثل هذا القاف وغيرها من الاصوات ، وقد يكون من المفيد ان نتذكر ان (الجيم) صار من الاصوات الشمسية فاذا قالوا : يوم الجمعة ، تكاد لا تسمع صوت اللام لدى كثير من المعربين فى عصرنا ، وقد نسمع هذا التجاوز فى نطق المتعلمين ومدرسى العربية ولا سيما فى العراق .

وفى هذه المرحلة يشعر التلميذ بالاصوات المصوتة قصيرها [١١] وطويلها وهى الفتحة والكسرة والضمة ، وأصوات المد ، وهى الالف والواو والياء ، وفى هذا الاشعار ايحاء للصغير ان هذه الاصوات القصيرة هى كالاصوات الطويلة فى طبيعتها وصفاتها وطريقة اخراجها وما يتصل بمخارجها فى الفم ، وهذا الاشعار لا يتجاوز الايحاء ولفت النظر والانتباه الى ذلك بطريقة التكرار وسماع الكلمات مقطعة مخرجة اخراجا حسنا ، وهذا أول تعلم الالقاء والاداء والتلاوة قبل ان يكون الطفل قد رسخ فيه البيت والمحيط عادات غير مقبولة فى الاصوات .

وفى هذه المرحلة يبدأ مع الطفل اعتبارا من السنة الثانية بتأليف جمل قصيرة لا تتجاوز الكلمتين حتى اذا تجاوز السنة الثانية يصار الى جمل أطول منها تتألف من كلمتين مع ما يكملها من جار ومجرور أو ظرف أو شيء غير ذلك ، على ان تكون هذه الجمل قريبة كل القرب مما ألفه

وسمعه فى البيت أو الشارع أو السوق مثلا .

على ان هذه الجمل تستوفى الاصوات الصامتة شيئا وهى مرسومة فى الكتاب رسما واضحا يستوفى فيه صور الصوت اذا كان فى أول الكلمة متصلا بما بعده ، أو فى وسط الكلمة موصولا بما قلبه وما بعده ، أو فى آخر الكلمة موصولا بما بعده او منفصلا عنه نحو : باب ، بيت ، أربع ، عجب .

وبتكرار هذه الكلمات فى جمل موجزة مقرونة بصور جميلة يهتدى التلميذ المتعلم الى الرسم فى الاصوات ، ان طريقة الرسم للاصوات العربية وكيف يكون ذلك فى الكتابة واعنى به ما يسمى في اللغة المدرسية المعاصرة (الاملاء) مشكلة معقدة ينبغى التدبر لها في عملية التعلّم[١٢] منذ المرحلة الاولى في المدارس الابتدائية .

ان الكتاب المدرسى فى السنوات الثلاث أو الاربع الاولى من سنى الدرس ينبغى ان يكون كتابا للقراءة والتلاوة واجادة الاداء كما أشرنا في تعلم الاصوات وضبطها ، وهو في الوقت نفسه كتاب لتعليم ما يسمى بـ (التحرير والانشاء أو تكوين الجمل) يجب ان يكون هذا الكتاب ولا سيما في السنتين الثالثة والرابعة معينا للمتعلم في تكوين الجمل ، ومن ثم ينبرى مقلدا ومحاكيا هذا النمط من التأليف فيبدأ فى تأليف جمله الخاصة .

ان هذه الجمل من غير شك جمل موجزة قصيرة واضحة ترمى الى المعنى بيسر ومن غير تعقيد كالتقديم والتأخير .

على ان هذه الجمل تتألف من الرصيد اللغوى الذى يعرفه المتعلم فى بيته ومحيطه ثم يزاد عليه شيئا فشيئا ، قد يقال : ان الرصيد اللغوى يختلف فى البيئة الواحدة ذلك ان ابن القرية له رصيده اللغوى الذى يختلف عن رصيد نظيره ابن المدينة ، ومن هنا وجب على واضعى هذه الكتب للسنوات الاربع ان تحسب حساب الرصيد اللغوى المشترك الذى يجمع ابناء القطر الواحد .

على ان يلتفت المعلم الى ان عملية القراءة وتعلُّمها يجب ان يصحبه تعلُّم للتجويد[١٣] وأريد

بالتجويد ان يتدرب المتعلم على حسن الالقاء وبهذا يتم لتعلم القراءة قدر واف من الضبط اللغوى اداءً وفهماً والقاءً ، ومن غير شك ان المتعلم يهتدى طوال هذه السنوات الاربع الى لون من القواعد النحوية يألفه قبل ان يشار اليه بالاسم على أنه (نحو) أو (قواعد) كما يسمى فى لغة المدارس فى عصرنا .

ألا ترى ان تعلم القراءة على هذا النحو ، والتوفر على هذه الفوائد التى أشرت اليها فى الاصوات والدلالة يجعل العربية وحدة ثقافية تضيف الى معارف المتعلم فوائد عدة لا أرى الحاجة تدعو الى تكرارها . وقد يكون من ابرز هذه الفوائد اثراء معجم المتعلم وهو مبتدىء فى أول الطريق .

ويستمر تدريب المتعلمين على القراءة الجيدة النافعة التى تهدف الى تحقيق اغراض عدة هى حسن الاداء وما يقتضيه من احسان اخراج الاصوات، والتدريب على تأليف الجمل وزيادة المعرفة اللغوية باستعمال مجموعة من الكلم تزداد كلما تقدم المتعلم فى تدرجه فى المدرسة ، حتى اذا وصل المتعلم الى السنة الخامسة أضيف الى الاغراض التى تهدف اليها مادة المطالعة غرض آخر هو معرفة القواعد النحوية والتطبيق الصرفى اللذين يشتمل عليهما كتاب النحو والصرف .

ولابد لنا ان نقف على مادة الصرف والنحو ، وقد قدمت موضوع الصرف لان التقديم شيء يقتضيه الترتيب العلمى كما سنرى .

قلت لابد من البدء بالصرف فما حقيقة هذه المادة ؟

ان الصرف يعرض للكلمة وتركيبها على صورة من الصور وما يعرض لها من تغيير فى بنيتها وابدال فى أصواتها واذا كان الامر كذلك فلابد من البدء بأصغر وحدة تشتمل عليها الكلمة الصرفية ، تلكم هى الاصوات ومعرفتها .

وقبل ان نتناول هذه المادة وفق ما يقتضيه العلم الجيد النافع نرى من المفيد ان نبين مادة الصرف فى الدراسة القائمة والتى يتبعها الدارسون فى عصرنا فى المدارس كما هى مدونة فى

كتبهم المدرسية ، ان مادة الصرف فى الكتب المدرسية مبثوثة فى كتب النحو لا تتبع نظاما فى توزيعها وترتيبها فقد تجد المادة الصرفية بازاء المادة النحوية ثم تتقطع هذه المادة الصرفية وتتحول مادة الكتاب الى النحو ثم تعود مرة اخرى الى الصرف ، وربما وجدت المادة الصرفية جزءاً من الموضوع النحوى .

ولعل هذا ناتج عن ان الكتاب المدرسى الجديد يتبع فى سرد مادته الكتاب القديم ، الا ترى ان الكتاب القديم حين يعرض لاسم الفاعل يعرض فى الوقت نفسه الى عمل اسم الفاعل فيكون الموضوع صرفيا ونحويا .

ولم يفطن احد من المصنفين للكتاب المدرسى فى مادة الصرف ان يعرض لشىء من الاصوات، وعلم الاصوات من اهم ما يمكن ان يرجع اليه الدارس فى تفهم كثير من المواد الصرفية[١٤] ، على ان الاشارة الى شىء يسير من علم الاصوات ضرورى فى الدراسة الثانوية كأن يشار الى الجهر والهمس ، والاصوات القمرية والشمسية ونبذة موجزة عن مجاميع الاصوات نحو الاصوات الحلقية والاصوات الشفوية وما يكون منها فى طرف اللسان وغيرها .

واذا كانت الدراسة الصوتية امرا لابد منه فقد يكون من الواجب ان يبدأ بشىء من ذلك فى دراسة مادة الصرف بدءاً من المرحلة الثانوية ، على ان تكون هذه الدراسة مصححة لكثير من الخطأ الذى جرى عليه المتقدمون وتبعهم اللاحقون الى ان أظلنا العصر الحديث .

ان دراسة للمواد الصرفية فى عصرنا في الكتب المدرسية الحديثة لا تختلف فى جوهرها وموادها وتفريعاتها عن علم الصرف في الكتب القديمة .

ان من دراسة الصرف ان نعرف بدءاً شيئا من الاصوات ، والاصوات كما هو معلوم قسمان : الاصوات الصامتة Consonne والاصوات المصوِّتة «Voyelle» .

وهذا يعنى ان نقلع وفق هذه الدراسة عن مصطلح (الصحيح) و(المعتل) وذلك لان الحروف الصحاح بحسب علماء اللغة الاقدمين هى الحروف غير الواو والالف والياء ، وهذا

ما هو معمول به الى يومنا هذا فى الدراسات المدرسية فى مراحلها المختلفة ، وهذا يعنى ايضا ان الالف والياء والواو هى حروف (العلة) تقابل (الصحاح) .

ووجه الوهم فى هذا التقسيم ان الصرفيين العرب قد خلطوا بين أصوات اللين والمدّ فى نحو : (قالَ ويَقولُ ويَبيعُ) وبين الواو والياء في نحو : (وَجَدَ ويَسَر) وقد يكون الخلط أكثر من ذلك لدى الاوائل الذين عدّوا الفعل المهموز نحو : (أمَرَ وسألَ وقَرَأ) فى باب المعتل (انظر كتاب العين للخليل ، والتهذيب للازهرى) .

ومن المعلوم ان الواو فى (وَجَد) والياء فى (يَسَر) والهمزة فى المهموز ايا كان موضع الهمزة ، كل ذلك من الاصوات الصامتة ، وكان الحق ان يعدها الاوائل مع طائفة الحروف (الصحاح) غير المعتلة .

ولعل من باب الوهم أيضا ان العرب خلطوا فى الرسم أيضا فقد كانت الالف وهى صوت مدّ لينة ترسم على هذا النحو (ا) كما فى (قال) وهذا الرسم يؤدى الهمزة عندهم قبل ان يكون لها رسم خاص هو رأس العين بعد اقتطاع ذنبه(عـ) ، وكانت الواو وهى صوت مدّة ولين ترسم على هذا النحو (و) كما فى (يقول) ، وهذا الرسم هو نفسه فى (وَجَد) ، وكانت الياء وهى صوت مدّ ولين ترسم على هذا النحو (يـ) كما فى (يَبيعُ) وهو نفسه في (يَسَرَ) ، ولو أنهم خصصوا لهذا الألف الذى في (اَمَرَ) وللواو كما في (وَجَدَ) وللياء كما فى (يَسَرَ) رسوما أخرى غير تلك التى تؤدى المدَّ واللين كما في (قالَ ويقولُ ويبيعُ) لاختلاف هذه عن تلك طبيعة وصفات ومخارجَ وأحيازا لكنا اليوم أسعد حالا وأيسر في فهم كثير من مشكلات العربية[١٥] .

على أن التصحيح الذى تتكفل به الدراسة الصوتية المعاصرة لا يقتصر على المشكلة الآنفة ، ذلك ان مما يتصل بها من حيث كونه اصواتا مصوتة هو موضوع ما عرف بـ(الحركات) ، لابد لنا ان نقف وقفة خاصة فنؤكد أن هذه (الحركات) هى أصوات مدّ قصيرة كان ينبغى ان تُضمَ الى طائفة الاصوات عامة ، وهذا يعنى ان عدة الاصوات تصبح تسعا وعشرين مع الهمزة ثم تكون اثنين وثلاثين مع الفتحة والكسرة والضمة[١٦] ، على أن يكون لها رسم يدخل فى بناء

الكلمة أى ان هذه الاصوات (الحركات) ترسم فى الكلمة كما فى (كُتِبَ) كما ترسم الكاف والتاء والباء .

ومن جراء الخلط بين أصوات اللين أى المدّ وبين كونها أصواتا صامتة كما بيّنا قالوا فى باب الاعلال مثلا ان : (قالَ) أصلها (قَوَلَ) و (باعَ) أصلها (بَيَعَ) وان الواو والياء تحركتا وانفتح ما قبلهما فقلبتا الفا .

نقول : ان الالف في (قال) و (باع) ليست من الواو في (قَوَل) ، ولا من الياء في (بَيَعَ) ، واذا كان المصدر (قَوْل) و (بَيْع) فلا يعنى هذا ان الفعل من المصدر جريا على مقولة سابقة افترضوا فيها ان المصدر اصلٌ وان الفعل فرع منه على رأى النحاة البصريين[١٧] .

قلت في الحاشية (١٥) ان العلاقة بين الفعل والمصدر في هذه الافعال المسماة (جوفاء) علاقة معنى ودلالة وليس علاقة تأصيل .

أقول : ان درس علم الاصوات في عصرنا هذا ينبغى ان يصار فيه الى حل هذه المشكلات ونحوها لا أن يكتفى به على القول بالمخارج والاحياز وطبيعته وصفته وطريقة اخراجه وما يتصل بذلك من اعضاء جهاز النطق .

ان باب الاعلال باب كبير فى العربية أقيم كله على هذا الخلط فى الاصوات فكان فى جملته مصطنعا مفتعلا ، ولنضرب على ذلك مثلا فنقول :

قالوا أصل (مبيع) (مبيوع) فكيف توصلوا الى (مبيع)، لقد اتبعوا طريقا طويلا كله عبث وافتعال فقالوا : نقلت حركة الياء الى الباء وهو الصحيح الساكن ، فالتقى ساكنان فحذف الواو ، وهوواو الصيغة ثم أبدلت ضمة الباء الى كسرة لمناسبة الياء فصار (مبيع) .

قد تقول : لم حذفت الواو لالتقاء الساكنين ، ولم لم تحذف الياء ، كعادتهم فى حذف الساكن الاول ؟ ولم عدوا الواو ساكنا وهو ضم طويل ؟ ولم كانت الياء حرف علة متحركة تحولت الى مد طويل في (مبيع) ؟ كل هذا للوصول الى ما أرادوا .

لقد فاتهم ان ينظروا الى الابنية على أنها مواد تاريخية ، وان العربية لسان مجاميع بشرية كثيرة

مختلفة بعضها عن بعض ، وهذا يعنى ان من العرب من كان يقول : مديون ومبيوع ومصوون[١٨] ، وهذا يعنى ان الامر يتصل باللغات الخاصة اى (اللهجات) ، فالذى يقول (مديون) هو غير الذى يقول (مدين) وهذا يعنى ايضا ان بناء (مدين) تطور لبناء (مديون) عند قبيلة أو مجموعة من القبائل ، فى حين ان (مديون) وهى لغة جماعة أخرى لم يكتب لها التطور المفترض .

ان الدراسة الصوتية تفرض علينا ان نقول للطالب : ان (مدين) ليس من (مديون) وان كلا منهما بناء قائم بذاته وذلك ما يفرضه علينا علم الاصوات الذى يميز بين الياء في (مدين) والياء فى (مديون) لان كلا منهما صوت يختلف عن الآخر .

ومن ثمار علم الاصوات اننا نقول لطالب فى عصرنا ـ لو تهيأ لنا ذلك ـ : ان الفعل (أزدَحَمِ) و (الفعل) (أدّعَى) والفعل (اذدَكَرَ) كل ذلك من بناء (افتعل) مثل (اختلط) ولكن بسبب من الحرص على المماثلة فى طبيعة الصوت أبدلت تاء (افتعل) دالا بعد الزاى والدال والذال .

وفى باب الابدال امثلة كثيرة نستطيع ان نجد علة الابدال في المماثلة الصوتية ، فالصوت المجهور يلتئم مع نظيره وكذلك المهموس .

وبعد هذه البسطة من الكلام على الصرف وكيف ان ينظر اليه مستفيدين من علم الاصوات يحسن بنا ان نقف على أكبر مادة فى تاريخ العربية هى مادة النحو .

قلت: ان مادة النحو قد ظلمت كثيرا فى الدراسة اللغوية المتبعة فى مدارسنا ومعاهدنا وكلياتنا ، وقد أشرت الى ان النحو القديم منذ أن حُرِّر فى مصنفات لكتاب سيبويه و (المقتضب) للمبرد و (أصول ابن السراج) وغير هذا من الكتب التى كتبها اللاحقون لهذه الطبقة من الاول الى كتب المتأخرين كالالفية وشروحها وغير ذلك من المواد التى يجب على دارس النحو ان يلم بها الماماً وافياً ليعرف تطور الكتابة النحوية ، وليلم بمنهج الاوائل ومنهج المتأخرين من النحاة ، ولابد للطالب فى الدراسة العالية (الكليات) ان يعرف النحو فى هذه

المظانّ ، على ان هذا غير كاف ، لان تطور العلم اللغوى يستدعى الدارس الجديد ان يعرف النحو الجديد الذى يتفق والعلم الجديد ، على هذا يكون امام الطالب لونان من الدرس النحوى .

الاول : هو النحو التاريخى يدرس فى مظانه القديمة دون ان يكون الدرس نقدا أو مقصورا على النقد .

والثانى : النحو الجديد وهو النحو الذى نصف به الكلمة العربية مفردة والجملة العربية ومكان الكلمة فيها وما موضعها النحوى فيها .

فى هذا الدرس الجديد الثانى نعزف عن الجمل المصطنعة المفتعلة التى كنا نواجهها في الكتب القديمة فلا يرى الطالب مثلا الشاهد النحوى :

قـومـي ذرى المجـد بـانـوهـا وقـد عـلمـت

بـكـنـه ذلـك قـحـطان وعـدنـان

ولا ما صيغ على غراره من قولهم : زيد هندا أو هند ضاربها هو .

اذا كان الشاعر القديم مضطرا ان يقول ما قال من اللغة المفتعلة بسبب الوزن فليس قوله نظاما يتبع فنصوغ مثالا نحويا على غراره .

واننا نعزف عن قولهم ان : (زيد قام) زيد مبتدأ خبره جملة (قام) من الفعل وضميره المستتر ، بل نقول : ان (زيد) فاعل للفعل (قام) وهو نظير قولنا (قام زيد) وليس فى التقدّيم والتأخير مسألة نحوية ، ذلك ان هذا يتصل بالأساليب ومعانيها من حيث الاهتمام بالمقدم فعلا كان أو اسماء .

وليس لنا ان نقول فى قوله تعالى : (وان أحد من المشركين استجارك فأجرْه) : ان (أحد) فاعل لفعل محذوف يفسره المذكور والتقدير : (وان استجارك أحد من المشركين استجارك فأجِرْه) . وذلك لانهم افترضوا ان فى (استجارك) الثانى ضمير هو الفاعل يعود على (أحد) المتقدم .

أما نحن فنقول : ان هذا من العبث وان الفاعل (استجارك) المتأخر وان الفاعل قدم عليه لغرض من أغراض الاسلوب ، ولكلام الله أسرار يهدى اليها طبيعة هذه العربية ذات الاساليب المختلفة .

ومن العبث ان نقول بباب التنازع كما فى قولهم : « قعد وقام أخوك » والفاعل متنازع عليه من الفعلين فقد عده البصريون للفعل الاول لاوليته ، وعده الكوفيون للفعل الثانى لقربه ، وقال كل منهم يحتمل الفعل الذى ليس الاسم الظاهر فاحلاله ضميرا هو فاعله .

أقول : ان هذا من العبث الكبير ولو أفترضنا ان مثالا وقع فى لغة الناس على هذا النحو لكان الفاعل لكليهما فى رأينا الجديد مثلا ، وعلى ان نرفض باب التنازع كما نرفض باب (الاشتغال) فى قولهم : الخبز أكلته ، قالوا الخبز نصب على الاشتغال لانه مشغول عنه أى أن الفعل قد شغل بضمير الخبز المتقدم فنصبه ، اللهم ان هذا ن العبث الكبير ، فالخبز مفعول للفعل المتأخر .

ثم أليس من العبث ان يقول الطفل الغرير فى قوله : يلعبُ الولد ، ان الفعل مرفوع لتجردّه عن الناصب والجازم . ألا ترى ان فى قوله (لتجرده) اشعاراً الى أن الفعل أملِي عليه ان يقول بـ (العامل النحوى) أى أن سبب الرفع هو (التجرد) ، وكيف لهذا الطفل ان يدرك السبب والعلة والمعلول ؟ ثم كيف له أن يدرك (التجرّد) ؟

انهم ألبسوا هذا الطفل لبوس المنطقى المتفلسف ، وهل يطيق هذا الصغير هذا المنطق ؟ ويسمون للمتعلم ابتداء من المبتدىء الصغير وهو الطفل مسميات لا يدركها فالمضارع شيء بعيد كل البعد عن ادراك المتعلم الكبير بله الطفل الصغير .

قالوا : ان المضارع ما ضارعَ الاسم أى شابَهه ، ولا نرى نحن الدارسين فى هذا العصر وجهاً للشبه بين الفعل هذا والاسم ، وكأنهم أدركوا هذا الاضطراب فقالوا أيضا أشبه اسم الفاعل الثلاثى في حركاته فان (يضرب) مثل (ضارب) في الحركات ، وهل رأيت أخى القارىء مثل هذا العبث .

ثم قالوا : أشبهه في الاعراب لان الاعراب أصيل في الاسماء، والبناء أصيل في الافعال، فلما أعرب (المضارع) شابَهَ الاسماء فسُمىً مضارعاً أى مشابهاً، كل هذا من العبث .

وأكثر عبثا من ذلك أنهم لم يهتموا بزمن الفعل اهتماماً كافياً فالماضى هو زمن قضى ولا تعرف لهذا الماضى حدا في نحوهم ، كما لا تعرف حدود الحاضر او المستقبل ، فأين المستقبل القريب وأين المستقبل البعيد ؟ وكيف يكون الفعل مستقبلا بالقياس الى فعل آخر فى الجملة عينها وكلاهما ماض قديم ، ألم يُعرب العرب فى جاهليتهم وأسلامهم وفى كتاب الله تعالى وحديث رسوله عن خصائص زمنية كهذه ؟

لم يدرك النحوى القديم من هذا شيئا ، افترى ان العجب كل العجب ان يظل هذا النحو قائما فلا يصلح شيء منه ولا يؤتى بجديد مع النافع من القديم الموروث ! .

هذا قليل من كثير يتصل بمادة النحو وبما اثقل من مواد ليست من النحو وبما كتب فى اسلوب قائم على عناصر ليست لغوية ، هى أقرب الى أهل المنطق المتفلسفين .

ونجتزىء من ذلك بالامثلة التى سقناها لنتفرغ الى شيء عن المعجم العربى فنقول : ان المعجم العربى قديم باق على قدمه ولم تستطع الجهود الكثيرة على ان تحرر معجماً جديداً ، من صفات المعجم القديم أنه وعاء فيه من الفوائد ما لا حصر لها فقد تكون فيه الكلمة ودلالتها واستقامتها ومشتقاتها ومعانيها الكثيرة المختلفة وما يتصل باللهجات من ذلك ، وقد يكون مما لا حاجة به أى من الموضوع المصطنع الذى قذف به الوضاعون على نحو ما وضع فى الثقافة العربية فى الشعر والنثر والاخبار والحديث وغير ذلك من الالوان الادبية التاريخية .

أقول : ان المعجم القديم وعاء حوى الكثير من المعارف المفيدة وغير المفيدة ، واذا كان وعاء فقد يكون من صفاته عدم التنظيم فأنت لا تستطيع ان تهتدى فيه الى الفائدة المرجوّة بيسر ، وقد تستوفى المادة ولا تجد ضالتك .

والكلام كثير في هذا الباب .

والذى ندعو اليه ان يكون لنا معجمات هى :

١ ـ معجم تاريخى يؤرخ للكلمة فيتعقبها فى مسيرتها الى ان تظل حيّة أو ان تموت مفيدا من النصوص المعتمدة الموثوق بها .

٢ ـ المعجم الجديد للعربية المعاصرة ذلك ان هذه العربية على فقرها قد اشتملت على جديد لا نستطيع ان نحمله على الخطأ بحجة قل هذا ولا تقل ذلك .

٣ ـ المعجم المدرسى ، وهو جهد كبير يلزمه ضبط للرصيد اللغوى فى القطر وفى الاقطار المختلفة لنضبط ما يمكن ان يؤلف مادة هذا المعجم فيرجع اليه الدارس الجديد .

٤ ـ المعجمات الخاصة وهى معجمات العلوم والفنون والآداب .

خاتمة :

وبعد فهذا جهد شاركت فيه في هذه الحلقة آمل ان تكون مشاركتى مفيدة نافعة .

الهوامش

(١) قلت ان بين أهل الاختصاص في العلوم الحديثة من لا يعرف العربية ، وليس هذا كافيا فهم يرون ان اتقان العربية ليس ضروريا ، وآلية ذلك انهم يبيحون لانفسهم استعمال العامية فى التدريس ، وقد استفحل الامر فصار اهل العلوم الانسانية من أصحاب هذه الألسن الدارجة ، يستعملونها فى محاضراتهم . ولو قد اعترضت عليهم لاجابوا انهم ليسوا مدرسى لغة عربية ، كأن اللغة الفصيحة واجب مدرس العربية ليس غير ، ومن العجيب ان هؤلاء يلتزمون بالاصول اللغوية وهم يستعملون اللغة الانكليزية أو الفرنسية مثلاً ، ولكنهم لا يفعلون ذلك ان تحولوا الى لغتهم العربية ، هذا شيء غريب لا نفهمه .

(٢) كأن الاشارات القديمة الى (المعرّب) تشير الى ان الاصل (فارسى) وذلك لان النقل من الفارسية كان كثيرا بالقياس الى ما عرّبه العرب من غيرها من اللغات الاعجمية . ومما تجب الاشارة اليه ان (المعرّب) الذى انصرف الى اغراض علمية من الاصول الفارسية قد شاع فى العصور القديمة ، وأخذه غير العرب من العرب أنفسهم ، وقد يكون من الطريف ان تجد الفرس استخدموا هذه (المعرَّبات) العربية فى كتابتهم باللغة العربية وهى ذات أصول فارسية .

(٣) يريد به الصوت الشفوى بين الباء والفاء ، وهو الباء الاعجمية التى ترسم باء معجمة بثلاث نقاط تحتية في الفارسية ، يقابل حرف ال (p) في اللغات الغربية .

(٤) الجواليقى ، المعرّب ، ص ٦ ـ ٧ .

(٥) يوسف حبيقة البسكنتاوى ، الدوائر السريانية في لبنان وسوريا ، ٢ ج (جونية : ١٩٠٢ ـ ١٩٠٤) .

(٦) ماراغناطيوس افرام الاول برهوم ، الالفاظ السريانية فى المعاجم العربية ، (دمشق : ١٩٤٨ ـ ١٩٥١) .

(٧) أقول : لعل العربية كانت قد تحولت الى شيء آخر من الالسن الدارجة ، أو قل : انها ربما تخففت من (الشكل الاعرابى) لولا القرآن الكريم ، فقد التزمت لغة القرآن بهذا (الشكل) وكان من الواجب ان يحافظ على نص لغة التنزيل بلفظها وشكلها واعرابها ، ومن ثم حوفظ على سائر التراث الادبى بمادته وشكله واعرابه فانتهينا الى العربية الجديدة التى كان من الطبيعى ان تبقى محافظة على (الشكل الاعرابى) كما حوفظ عليه فى لغة القرآن والحديث والشعر القديم .

(٨) قلت فى الحاشية (٧) ان الاعراب فى (شكله) اى الحركات نظام عرف فى العربية منذ أقدم عصورها يظهر فى الشعر الجاهلى ، والالوان الادبية الاخرى النثرية كالامثال والرجز وغيرها ، ثم جاء الاسلام فكان كتاب الله الكريم قد احتفظ بهذه الادوات الصوتية فى أواخر الكلم ، ولولا هذه اللغة الشريفة لكان امر الاعراب حلية أوزينة من شأنها ان تزول . ويقوى هذا الرأى عندى ان غير العربية من اللغات السامية كانت تحفل بالاعراب فى عصورها الاولى حتى اذا درج عليها المتكلمون تخففوا من هذا القيد فاستحالت الى لغات ساكنة الآخر ، ويدلنا على هذه الحقيقة التاريخية ما بقى من أثر للاعراب فى جملة مواد لغوية فى الاكدية القديمة والعبرانية والآرامية القديمتين .

(٩) لقد هبّ بأخرة جماعة من المثقفين العرب يكتبون عن (البنيوية) فى مصطلح المشارقة أو (الهيكلية) فى مصطلح المغاربة فعرضوا لها فى علم اللغة ، وفى النقد الادبى وفى كثير من وجوه المعرفة أما أهل اللغة فتكلموا على النحو التحويلى او التوليدى كما كتب فيه رأس هذه النظرية وهو تشومسكى العالم الامريكى ، قلت انهم هبّوا بأخرة وكأنّ هذا العالم وجد فجأة أو قل ولد فجأة وان آراءه ونظرياته هى بنت امس القريب ، وما درى القارىء ان هذا العالم الامريكى قد غبر عليه اكثر من ثلاثة عقود يكتب فى هذه الموضوعات والف كتبا عدة شرق فيها وغرب .

كأن أصحابنا حين رأوا هذه الفوائد مما يتصل بالنحو التوليدى راحوا يفتشون ويخبطون فى طريقة الافادة منها فى نحو العربية فصاروا يؤلفون ضروبا من الجمل فى أى باب من أبواب النحو ليقولوا لنا ان الجملة قد تتصرف الى أنماط شتى من وجوه القول ، وقد ألجأهم ذلك الى ان يأتوا بما ليس مقبولا ولا منطوقا به ، لقد اغفلوا عن قصد ان العربية نمط واحد فى بلاد العرب كافة من المغرب الى المشرق هى اللون الفصيح ، وان لا سبيل الى

ادخال الالسن الدارجة فى الحساب التى هى في مادة علم اللغة الحديث لغات مهمة بل هى اهم من العربية الفصيحة لانها اللغة التى يدرج بها الناس وبها فكرهم وسلوكهم . ومن الغريب ان هؤلاء عمدوا الى تزكية الخليل وسيبويه وغيرهما من الاوائل لانهم وجدوا فى اقوالهم شيئا ترتضيه (البنيوية) الجديدة ، أقول : ان الخير كل الخير فى معرفة البنيوية الجديدة والاجتهاد منها ان نأتى بشيء يفيد فى درس العربية الجديدة التى مازالت مناهج تعلمها بعيدة عن العلم .

(١٠) من المفيد ان نشير الى ان صوت الضاد قد انبهم امره والتبس بصوت الظاء منذ قرون عدة ودليلنا على ذلك ان غير واحد من علماء العربية فى القرون الرابع والخامس والسادس وما بعد ذلك قد صنفوا مصنفات تجمع الالفاظ التى وردت بالضاد ونظائرها التى وردت بالظاء ليهتدى بها المعربون .

(١١) أقول : لابد من البدء بتصحيح الخطأ الذى وقعنا فيه تأسيا بما جرى عليه الاقدمون فقد عدوا الاصوات القصيرة (حركات) وتسميتها حركات يبعدها عن أن تكون لها قيمة صوتية ، ومن اجل ذلك كانت رسوما ثانوية تثبت فوق رسم الصوت الصامت (الحرف الصحيح) أو تحته ، حتى اذا درج الطفل المتعلم شيئا ما غابت هذه العلامات من الكتابة . وهذا خطأ كبير وقع فيه المتقدمون فوقعنا نحن فيه ، فصار المتعلم المبتدىء لا يهتدى الى الصواب اذا لم ترسم هذه (الحركات) ومن هنا نشأ الخطأ واللبس ، ان من حق هذه الاصوات ان يكون لها مكان فى بناء الكلمة لا ان تضاف فوق الحرف او تحته فيخفف منها فتزول فينشأ ما ينشأ من الخطأ ، ان هذه الاصوات القصيرة كنظائرها الطويلة وهى كالاصوات الصامتة فى تقرير دلالة الكلمة فانت تعرف ان (الطَرَف) غير (الطَرْف) وغير (الطِرْف) ومثل هذا سائر مواد العربية .

أقول : كان على المعلم ان يشعر الطالب فى عملية التعلم بالقيمة الصوتية المهمة لهذه الاصوات ، وعلى هذا كأن تسميتها بالحركات اشعار المتعلم انها ليست ضرورية ، ومن اجل هذا غابت فى الرسم .

(١٢) ان كثيرا من المواد العربية تؤلف مشكلة فى الرسم (الاملاء) فرسم الهمزة مضطرب كثير الاختلاف ليس فى طوق المبتدىء ان يلم به ، والهمزة لم تحظ من العلماء المتقدمين بما كان لها من قيمة صوتية ولذلك تخففوا منها فلم يرسموها فى كتابتهم ، وآية ذلك ما نجده فى المخطوطات العربية فى رسم الهمزة فهى اما ان تحذف اذا كانت فى آخر الكلمة نحو (سماء) فترسم (سما) أو ترسم ياء ان كانت مكسورة فى درج الكلمة نحو

(حدايق) أو تكون ألفا فى أول الكلمة غالباً ، ثم انها لم تسم بهذا الاسم فكانت تسمى الالف وللتمييز بينها وبين ألف المد يقال الالف اللينة تمييزا لها عن الالف التى هى الهمزة .

ومن اجل ذلك كانت العناية برسم الهمزة ضرورية من حيث انها صوت كسائر الاصوات الصامتة ومن حق رسمها ان يثبت فى الكلمة وان يتفق على صورة لتيسير هذا الرسم بدلا من القواعد المعقدة الكثيرة ، الا ترى انهم يكتبون : رووس و رؤوس ورؤس .

(١٣) لقد بات مفهوما لدى كثير من الناس ان (التجويد) تلاوة القرآن بضرب من التغنى والتطريب ، أقول : ليس هذا هو المراد بالتجويد ذلك ان التجويد احسان التلاوة والقيام على اخراج كلمات الله تعالى اخراجا حسنا .

(١٤) لقد كتب فى الاصوات العربية جماعة من المستشرقين فى عصرنا فرجعوا الى ما كتبه العرب المتقدمون كالخليل وسيبويه وابن جنى ومن خلفهم من علماء اللغة وغيرهم . ثم أضافوا الى ذلك ما وصل اليه علم الاصوات فى عصرنا وما استعين عليه بمعامل الصوات (المختبرات) فدرسوا العربية المعاصرة وما يبرز فيها من مشكلات صوتية تتصل باللهجات وغيرها .

ثم كتب غير واحد من الباحثين العرب وعلى رأسهم ابراهيم أنيس وجماعة من اساتذة دار العلوم فى القاهرة ، وكأن كل واحد من هؤلاء يعيد ما ذكره الآخر في الكلام على الصوت الانسانى وطريقة اخراجه ، والجهاز الصوتى واجزائه وعلاقة الصوت بعملية التنفس شهيقا وزفيرا ثم الاجزاء العضوية التى يتم فيها اخراج الصوت (المخارج والاحياز) وفوائد اخرى تتصل بصفات الصوت وغيرها .

أقول : كل ذلك حسن وجيد ولكن ما فائدة ذلك فى اللغة التطبيقية ، واذا عرفنا كل ذلك فهل عرفنا الاصوات على حقيقتها اذا علمنا ان الاصوات تختلف بين بيئة واخرى ، وبين جماعة واخرى ، وقد يكون الاختلاف بين فرد وآخر وبين عصر وعصر ، فان لم يكن من ثمرة دراسة الاصوات معرفة شيء من مشكلات العربية ولا سيما المسائل الصرفية فلا فائدة فى هذه الدراسة ، وفى الحال تكون الدراسة الصوتية حشو ذهن الطالب بمسائل لغوية صوتية متشابهة يحفظها الطالب فى المرحلة الجامعية وسرعان ما ينساها ،

قلت : ان الاصوات تختلف بين قطر وقطر ومدينة واخرى والمدينة والقرية وفرد وعصر وآخر ، فهل لنا ان

نقول : ان علمنا بالاصوات علم يمكن ان يطمأن اليه ، وكيف يمكننا ان نقول : ان الصوت الفلانى كيت وكيت مع علمنا ان هذه الاصوات كما هو واقع جار متأثرة بالالسن الدارجة ، وحتى المادة العلمية التى سجلها الاوائل فى الاصوات ، كيف يمكننا ان نقول : انها صحيحة جيدة أو انها اصوات العرب عامة فى قبائلهم المختلفة وبلادهم المترامية الاطراف .

وعلى أن أهم فائدة لهذه الدراسة الصوتية ينبغى ان تكون عملية تطبيقية ، وذلك بفهم المشكلات اللغوية كما سنرى

(١٥) لعل الاقدمين قد جعلوا الرسم للالف والواو والياء ، من حيث كونها اصوات لين نظير الالف فى (أمَرَ) والواو فى (وَجَدَ) والياء فى (يَسَرَ) لانهم وجدوا ان اصوات اللين فى (قالَ ويقولُ ويبيعُ) تكون أحداث مصادرها : (القَوْل والبَيْع) فذهبوا الى أن المدّ فى هذه الافعال أصله الواو والياء فى (قَوْل وبَيْع) . ومن هنا حدث الخلط بين طبيعتين مختلفتين ، فكيف يصار الى حل هذه المشكلة ؟ .

أقول : ينبغى ان نقطع بمسألة الاصل والفرع فنقول : ان (قال وباع) فعلان يتألفان من صوتين صامتين بينهما صوت مدّ ولين ، وليس من علاقة أصل وفرع واشتقاق بين الفعل والمصدر (قَوْل وبَيْع) فكلاهما أصل ، ولكل اصل بنية خاصة وطريقة خاصة فى عدة الاصوات وبنائها وترتيبها ، وبهذا نحفظ للقيم الصوتية حقها ، ولو انهم ادركوا هذه الحقيقة لاستطاعوا ان يخالفوا فى الرسم فيكون للصوت المصوت رسم خاص كما يكون للواو الصامتة والياء الصامتة رسم خاص فيبتعد الخلط وتتضح المسائل .

(١٦) أقول : ان ادراك الاوائل ان الحركات عناصر ثانوية لا تملك هذه القيمة الصوتية التى لها فى الحقيقة العلمية دفعهم الى تسميتها (حركات) أولا ، وانها ثانوية ثانيا ، ومن ثم فليس مهما ألا تثبت فى الرسم ، فكان من ذلك ما كان من الخلط والخطأ ، ألا ترى ان (كتب) لولا هذه (الحركات) لصح لها اربع صور هى (كَتْبُ) و (كَتَبَ) و (كُتُب) و (كُتِب) ، ولعل من جهلهم لقيمتها الصوتية الحقيقية لم يتضح لهم موضعها فكأنها علامة أو اشارة توضع فوق (الحرف) أو تحته ، ولم يهتدوا الى أنها أصوات يلى كل منها الصوت السابق له كما فى (كُتِبَ) فهى : ك و ت/ ب/ أى الكاف تليها الضمة والتاء تليها الكسرة والباء تليها الفتحة .

(١٧) وكان الكوفيون يرون العكس وعندهم ان الفعل اصل والمصدر فرع عنه ، ولا يهمنا امر هذا الخلاف في عصرنا هذا ذلك ان المصدر والفعل كلاهما مادة واحدة فهما حدث ، وهذا الحدث قد يحدده زمن خاص اذا كان فعلا ، وقد يكون هذا الحدث غير مقترن بزمن خاص ، ولكن الاستعمال يكسبه شيئا من الدلالة الزمنية وهذا هو المصدر ، انظر اعمال المصدر كقولك يسرني مجيئك (اليوم أو غدا) فالدلالة مستفادة من بناء الجملة هذه .

(١٨) انظر اللسان مادة (صون) و (دين) و (بيع) ، وانظر (الخصائص) لابن جني .